كلمات مرسلة

للدكتور محمد يوسف موسى

نحن — العرب أو المسلمين عامة — نعيش على هامش الحياة ننفعل بما يكون من أحداثها ، دون أن تكون قوة في إيجاد هذه الأحداث . وبعبارة أخرى ، نحن مادة قابلة لما يريد الغير من صور لا قوة تفعل وتفرض على الغير ما تريد صور في هذه الحياة من كل أو بعض نواحيها.

ونجد مصداق هذا الذي نقوله فيما نحن عليه من نظم : في التعليم ، والبرلمان، والقانون، والسياسة وفي سيرة ممثلينا في البلاد العربية .

ونظن الأمر تكفي فيه الإشارة والتلميح ، ولا يحتاج لشيء من الإيضاح . فتلك حقيقة لا ريب فيها وهي نكبة على الأمة . إذ ليس معنى هذا إلا فقداننا الثقة بنا كأمة أو جنس ، وفقداننا الشعور بأن لنا شخصية مستقلة ، بها نتميز عن غيرنا ونستمدها من ديننا والخير من تقاليدنا وحضارتنا ، وبها يجب أن نعتز في غير كبرياء فارغ .

ليس من ضير على أية أمة أن تأخذ عن غيرها بعض ما تراه خيراً من نظمها وتقاليدها ، وتضمه إلى ما تحرص عليه من التقاليد الخاصة بها . ولكن من الشر ، كل الشر ، أن تذهب الأمة تلتمس لها نظاما في التعليم أو القانون أو الحكم من أمم مختلفة ، فيجيء هذا النظام مزقاً متنافرة ليس له وحدة حقيقية تضم أطرافه ، وليس له هدف موحد يسير إليه ، وليس له من فضل إلا أنه مأخوذ عن أمم ترى أنها تقدمتنا في الحضارة ؛ وهو — مع هذا كله — لا يتفق ودينا ، ولا يتفق مع ما هو خير من عاداتنا وتقاليدنا .

لقد آن الوقت الذي يجب أن نضع من جديد في الميزان تقاليدنا وحضارتنا كي نرى منها ما به نصلح في هذا العصر ، فنبقى عليه ونعتصم به ونعتز ؛ وما كان منها خيراً لزمن غير زماننا ، فلا نأسى على أطراحه واتخاذ بديل منه من هنا أو هناك .

وآن الوقت الذي يجب فيه أن نتساءل في جد : هل الإسلام هو الدين الحق الذي رضيه الله لنا كما يقول القرآن ؟ وهل نحن كما يذكر القرآن حقاً خير أمة أخرجت للناس ؟ فإذا وصلنا إلى اليقين بأن هذا وذاك حق ، وذلك مالا ريب فيه ، يجب أخيراً أن نتساءل عن السبب الذي من أجله لا يستخلفنا الله في الأرض كما استخلف الذين من قبلنا ولا يمكن لنا ديننا الذي ارتضاه لنا ، ولا يبدلنا من بعد خوفنا أمنا كما جاء في سورة النور من القرآن .

هذه آية كريمة تتضمن وعداً كريماً صادقاً من الله ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ وقد صدق الله وعده في فجر الإسلام وبعده في أزمان مختلفة ، لأجدادنا الذين آمنوا به حقا بقلوبهم لا بألسنتهم وحدها ، إيماناً واجهوا من أجله الموت راضين سمداء ، فلماذا لا يتحقق لنا كل هذا الذي وعد الله به مرة أخرى في هذا العصر إن حصلنا ما يجب أن يكون منا من أسباب ؟

إن ارتباط المسبب بالسبب أمر ضروري لا شك فيه . وقد أخطأ الغزالي خطأ بليغا ، لا زلنا نعاني حتى اليوم من أثره السيء ، على العقل والفلسفة والصالح العام للمسلمين ، وذلك حين حاول باسم الدين هدم القول بارتباط المسببات بأسبابها ارتباطاً ضرورياً لا عادياً .

نقول أخطأ الغزالي خطأ بليغاً ، إذ كان من صنيعه أن وقر في نفوس عامة المسلمين — بعد أن قرر ما قرر وهو حجة الإسلام — أن المرء قد ينجح في حياته وهو لم يتخذ للنجاح أسبابه الضرورية ؛ سواء أكان زارعاً أو صانعاً او تاجراً أو رجل سياسة ودولة !

وكان من هذا أيضاً أن أخذ كثير ، حتى من المثقفين ، يتساءلون عن العلة التي من أجلها لم يحقق الله للمسلمين هذه الأيام مظاهر القوة والسيادة ، ما به يؤكد أننا حقاً خير أمة أخرجت للناس وأن الإسلام خير الأديان . من هذا يتساءلون ، وينسون أن أي مسبب لا بد أن يكون له سبب ، وأن خرق ذلك لن يكون إلا

معجزة وقد مضى زمن المعجزات ، يتساءلون عن هذا ، ويسنون أننا لسنا مؤمنين ولا مسلمين حقاً .

نعم ! لنقل هذا صراحة ، فلسنا من الإيمان بالقدر الذى به يحقق الله ما وعد لعباده المؤمنين . وأدنى هـذا القدر أن نؤمن بالله وحده ، وألا نرجوا أو نخاف غيره ، وأن نتذكر أيما كنا من العالم أننا مسلمون ، وأن نعمل دائما عمل المؤمنين المسلمين .

هذا هو جماع السر الذى به نكون أهلا لنصرة الله لنا ، وذلك ما ليس متحققا فينا بكل أسف . ولنكتف فى هذا المقام بالقليل من الأمثلة ، أو الواقعات التى شهدتها بنفسى وشهدها معى كثير من الإخوان المصريين المسلمين .

١ — دعيت أكثر من مرة لحفلات استقبال أقامتها هـذه أو تلك من الدور الرسمية التى تمثل البلاد الإسلامية فى باريس ؛ فكان يجرى فى هـــذه الحفلات مالا يذكرنا قط أننا فى دار تمثل دولة من دول الإسلام . وحسبى أن أذكر أن من ضروريات هذه الحفلات أن تسيل الخمر كأنها الماء ، وألا يتعفف عن شربها إلا القليل جداً ممن عصم الله ، وأن يكون ذلك كله على مشهد من الأجانب الذين يعجبون أن يحدث هـذا من ممثلى الأمة الإسلامية .

ثم ذلك لا يحدث فى الأيام العادية فقط ، بل حدث أحياناً فى رمضان ، شهر الصوم ، وأثناء النهار ! بينما دعيت مرة فى رمضان أيضاً لحفلة استقبال أقامتها وزارة التربية الوطنية بباريس ، فكان مما عنى به القوم أن بدء الحفلة كان بعد غروب الشمس بقليل ! تلك مفارقة ، وأى مفارقة !

٢ — حاولت إدارة رسمية تشرف هناك على طلاب البعثات عقد صلات بين الطلاب وأساتذتهم الأجانب ، فلم تر إلا أن تقيم حفلة راقصة فيها كانت الخمر أصنافاً وألواناً ، وذلك فى وسط من الفوضى عجيب ، حتى اضطر بعض هؤلاء الأساتذة إلى الانصراف فى عجب بالغ وألم شديد .

وهذان مثالان ، ولو شئنا لأتينا بأخرى ، ولكن المقام لا يسمح وحيز الكتابة محدود . على أنى ، مع هذا ، أضيف أيضا هذه الكلمة التى نرى منها أننا نبتعد كل يوم عن الإسلام .

يكون من بعض من جعل الله إليهم الأمر فى الأمة الإسلامية فى مصر أو غيرها من بلاد الشرق الإسلامى ، الحدث الجلل من الأحداث ، الحدث الذى هو ظالم ساخر ، ظالم يتناقض صراحة وأمر الله ورسوله ، ومع هذا لا نجد كلمة اعتراض من واحد من الأمة . أى والله ، لا نجد أحدا يعترض ، حتى ممن يجب عليهم — بحكم مناصبهم الرسمية ومكانتهم من الأمة — الذود عن الدين والشريعة وحمايتها من العدوان .

ثم ، مع هذا كله ، نعجب من أننا فى ذلة وهوان ، بينما الغرب فى عزة واستعلاء ! ومتناسين قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ! ومتناسين أيضا قوله فى موضع آخر من القرآن : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » . ففى هاتين الآيتين الكريمتين بين الله الأسباب التى يكون عنها النصر والعزة ، وبين أن بين هذه الأسباب ومسبباتها رابطة لا انفصام لها ، تلك سنة الله فى خلقه .

هذا ، وهناك ناحية أخرى أحب أن أتناولها فى هذه الكلمات . لقد لمست طوال الأعوام التى قضيتها فى فرنسا ، وفى الفترات التى القصيرة التى عشتها فى ألمانيا وانجلترا وأسبانيا ، أن القوم هناك بعد الحرب يجتازون دورا خطيراً من ناحية العقيدة والدين .

إن كثيرا من الشبان فى أوروبا ، وبخاصة شباب الجامعة ، صاروا يعترفون بعجزهم عن فهم الديانة المسيحية وما فيها من أسرار تعجز العقل . وأن كثيرا من هؤلاء ، بلغ بهم التفكير الجاد فى هذه المشكلة ؛ أن صاروا يتلمسون لأنفسهم عقيدة أخرى يفهمها العقل ويطمئن لها القلب ؛ عقيدة تتفق وهذا العصر الذى نعيش فيه ، العصر الذى لا سبيل فيه للإيمان بما يعجز العقل عن إدراكه .

رأيتهم يطلبون دنيا فيه للقلب هوى ، وللعقل رضى ، وفيه من الروحية ومن المادية ؛ دين لا يرفض الدنيا ، بل يأخذ منها ويعمل فى الوقت نفسه للآخرة . وإن منهم من فكر حقا فى الإسلام